



الثقافة الرقمية دومينيك كاردون

سعید بوكرامي *

هناك تعريف شائع للثقافة الرقمية يقول إنها تعبير يشير إلى التغييرات الثقافية الناتجة عن تطوير ونشر التقنيات الرقمية وخاصة الإنترنت والويب. في الواقع، إنّ العوالم الرقمية تسربت بقوة إلى حياتنا اليومية على شكل تطبيقات لم يعد بالإمكان الاستغناء عنها مثل تطبيقات النقل العمومي والخاص، والحجوزات عبر الإنترنت بمختلف أنواعها، وخاصة ارتياد المكتبات الرقمية وتنزيل الكتب والمحتويات الإلكترونية... سواء كان المرئاد مبتدئاً أم لا، فإنّ الثقافة الرقمية تدل على الصعوبات، وتمنح المرئادين سهولة في استخدام الوسائل الرقمية والشبكات الاجتماعية، التي أصبحت في عصرنا الحالي، من الصعب التحكم في جاذبيتها وإغراءاتها.

من خلال الجمع بين معرفة المهندسين (المصممين) ومجمعات (المستخدمين) والعسكريين (المطالبين بالحلول). بالنسبة لكاردون، هذا يفسر إلى حد كبير الفلسفة التحررية المرتبطة بالإنترنت والتوترات تجاه السلطات التي ترغب في السيطرة على شبكة الإنترنت مثل الحكومات والشركات، إلخ. بشكل عام، تستخدم شبكات الكمبيوتر من قبل الجمعيات عبر الإنترنت التي تشترك في الانتماءات أو الاهتمامات أو المصالح في بعض الأحيان: بعض الجهات الفاعلة تهدف بعد ذلك إلى نشر عالم افتراضي يسمح للمجتمع بالتغيير الاجتماعي والسياسي، كنوع من المناطق المستقلة مقابل الدول والمؤسسات السياسية الرسمية، ترغب بعض المجتمعات في تحسين حياة الإنسان من خلال استغلال الآلة أو حتى تشكيل هويات جديدة عن طريق تغيير نوع الجنس أو العمر أو الجنسية، إلخ.

أحد أهم اهتمامات الكتاب هو التذكير بطبيعة الإجابات التكنولوجية عن هذه الاحتياجات والقيم التحررية. في الواقع، غالباً ما تنتج ابتكارات الكمبيوتر عن عمليات أصلية، يكون المستخدمون هم المبدعون في الغالب. ومن ضمنها الابتكارات الفيروسية التي ترتبط من الناحية النظرية بثقافة المشاركة والانفتاح المتجسد، خاصة في البرامج المجانية، والتي يمكن استخدامها وتعديلها وتوزيعها دون قيود لصالح المستخدمين جميعهم. تؤثر التغييرات الجذرية في استخدامات أجهزة الكمبيوتر على كل من المنتجات والعمليات. وتجسد، موسوعة ويكيبيديا بالنسبة لكاردون، مثالا جليا لإعادة تشكيل تبادل المعرفة بين منطلق السوق والمؤسسة ذات المنفعة العامة.

يتناول الفصلان التاليان المشاركة الرقمية في المناقشات العامة وعمليات الاتصالات الرقمية الجديدة - وهذا يتوافق على وجه الخصوص مع أعمال المؤلف السابقة، ويتعلق الأمر بوصف الشبكات الاجتماعية وتصنيفها

إلى كل جانب من جوانب حياتنا. إذا كنا نصنع الرقمية، فإنها تصنعنا أيضا. لهذا السبب أصبح من الضروري أن نشكل ثقافة رقمية تساعد الإنسان المعاصر على فهم ما قد يتجاوز إدراكه في يوم من الأيام، خصوصا مع تطور الخوارزميات والذكاء الاصطناعي.

يطور المؤلف الهائل لآثار الثورة الرقمية حسب دومينيك كاردون - عالم الاجتماع في وسائل الإعلام وتقنيات المعلومات والاتصالات وعلوم الثقافة الرقمية - منظورا جينالوجيا يحرص الكاتب على شرح كيفية ظهوره في سياق وخيارات الجهات الفاعلة في إنشاء أجهزة الكمبيوتر، وكذلك قيمهم التي أثرت وحددت في كثير من الأحيان، وما زالت، الأداء الحالي لشبكات الإنترنت والاتصالات. يقارن المؤلف الاندفاع الرقمي الساعي إلى إزاحة المطبعة.

ولبلوغ مراميها يعبئ النظام الرقمي العديد من المهارات والأدوات وخدمات تكنولوجيا المعلومات الرقمية.

يقترح كاردون حول موضوع من النادر جداً فهمه والإحاطة به بشمولية، تحليلاً يتقاطع فيه علم الاجتماع أو العلوم السياسية والاقتصادية وعلوم المعلومات والاتصالات، ليصف الكاتب بدقة القطاعات التي تمكنت تكنولوجيا المعلومات من إحداثها فيما يتعلق بممارسات الاتصال والاستهلاك والإنتاج. في كثير من الأحيان، يعتمد المؤلف على أهم - المهندسين والمديرين والعلماء والسياسيين - لخلق دينامية تلبى غرضه في استعادة أدوار الشخصيات العظيمة غير المعروفة غالباً، التي ساهمت في نشأة الثقافة الرقمية بدءاً من أصول الإنترنت، الويب كملكية مشتركة، الثقافة التشاركية والشبكات الاجتماعية، الفضاء العام الرقمي، اقتصاد المنصات، ثم أخيراً البيانات الكبيرة والخوارزميات.

يعرض الفصل التمهيدي المواجهة بين الثقافات المختلفة حول التصميم المعلوماتي. تاريخياً، تطورت شبكة الويب

يعرض كتاب «الثقافة الرقمية» للبروفيسور دومينيك كاردون تأملاً في هذا العالم الرقمي عبر تاريخه وجغرافياته واقتصاده وسياساته، منطلقاً من بداية الإنترنت إلى عصر تحديات الذكاء الاصطناعي، متوقفاً في كل دراسة من دراسات كتابه عند كل حالة على حدة مع أمثلة ملموسة. نذكر منها: مختبر دوغ إنغلبارت في ستانفورد، والنظام التنظيمي ليوكيبديا أو أيضاً إعلانات المواقع التجارية وتأثيرها على المرئادين ومحتوى الويب وتطوره السريع.

يقترح دومينيك كاردون في كتابه «الثقافة الرقمية» مساعدة القارئ على تفكيك وتفسير العوالم الرقمية، لأنّ التقنيات موجودة في كل مكان، ونحن نستخدمها كل يوم ويشعور من التعود والألفة. طبعاً هذا يحتاج إلى مرجعية معرفية وعلمية. ولعل هذا ما يمثل تحدياً حقيقياً لتجاوز هذا الشعور بالألفة والانتقال إلى مرحلة المساءلة عن بعد وبفضول عن كل هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تمارسها التكنولوجيا الرقمية على مجتمعاتنا. لكن الثقافة الرقمية لا تقوم ببساطة بتفكيك قضايا المجتمع الرقمي، ولكنها تعرفنا أيضاً على كيفية استخدام الأدوات الرقمية وممارستها واستكشافها. إن المعرفة والقيام والتحقق هي الأشياء الثلاثة التي يقوم بها دومينيك كاردون في مختلف المواضيع المختلفة لهذا الكتاب، والتي تتضمن نتائج دورات تدريبية عبر الإنترنت، وورشات عملية عن التعلّمات البرمجية، ومجموعة من الإجراءات والاستكشافات الرقمية التي تجمع بين المعرفة والمهارات المكتسبة. غالباً ما تتم مقارنة إدخال التكنولوجيا الرقمية في مجتمعاتنا بالإجازات التكنولوجية الرئيسية للثورات الصناعية. في الواقع، مع اختراع المطبعة أصبحت المقارنة ضرورية، لأنّ الثورة الرقمية هي في المقام الأول ثورة معرفية. كما كان الحال مع الثورة الورقية، لقد جاءت لإدخال المعرفة والمعلومات



الكتاب في المتناول رغم الموضوعات المعقدة للتكنولوجيا. ويظهر ذلك على وجه الخصوص، عند تفكيكه لشفرة الخوارزميات والذكاء الاصطناعي وبعبارة بسيطة، ولكن دون التقليل من أهمية القضايا الأساسية. يستند كتاب كاردون، من جهة، على منهج تعليمي، اكتسبه من خلال سنوات من الدورات التدريبية والمحاضرات ذات الطابع والهيكل التربوي، لهذا يتيح للقارئ الاستفادة منهجية من محتويات الكتاب. ومن جهة أخرى، فإن هذا الوضوح يكون مصحوباً في معظم مغان الكتاب بصراحة علمية كبيرة. كما تذكرنا الإحالات البليوغرافية التي تنهي فصول الكتاب، بالمجهود الأكاديمي الاستثنائي الذي يسعى إلى التعميم والتحقيق في موضوع راهن محفوف بالمفاجآت والمستجدات وقابل لأن تتغير أسسه العلمية ومضامينه الرقمية بسرعة مذهلة.

في الختام نشير إلى أن دومينيك كاردون هو عالم اجتماع وباحث مشارك في مركز دراسة الحركات الاجتماعية (EHESS). ويعد من أفضل المتخصصين في مجال الثقافة الرقمية. بحيث ساهم في دراسة استخدامات تكنولوجيايات الاتصال، وتحولات مواقف العمل تحت تأثير التقنيات الرقمية، والعمل عن بُعد، والعلاقات بين التواصل الاجتماعي والممارسات الثقافية منذ أوائل العقد الأول من القرن العشرين، كما ركز في بحثه على استخدامات الإنترنت في سياقات مختلفة: مثل برمجيات ويكيبيديا، والعلاقة بين الممارسات التعبيرية والشبكة الاجتماعية على مدونات الإنترنت، وممارسات الشبكة للخدمات الاجتماعية عبر الإنترنت، إلخ. يسعى عمله إلى تحليل التحولات في الفضاء العام والديناميكيات التعبيرية والعلائقية. يهدف بشكل خاص إلى توضيح الأساليب الرقمية لاستجاب العلوم الاجتماعية حول أشكال الالتزام السياسي والممارسات الثقافية والتواصل الاجتماعي. ومنذ عام 2010، شرع في إجراء تحليل اجتماعي لخوارزميات الويب والبيانات الضخمة التي تهدف إلى فهم كل من الشكل الداخلي للحسابات والعالم الذي تتوقعه الآلات الحاسبة في مجتمعاتنا.

الكتاب: الثقافة الرقمية.

المؤلف: دومينيك كاردون.

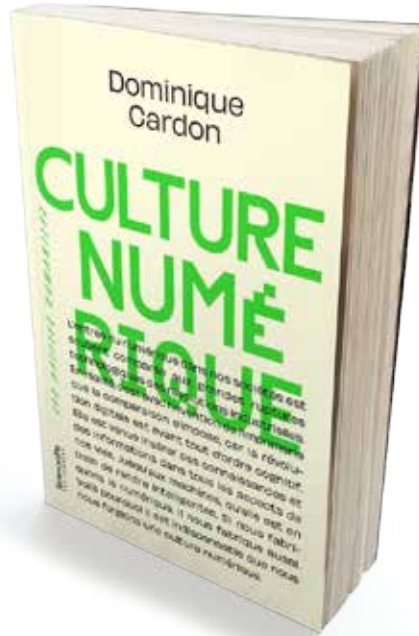
الناشر: Les Presses de Sciences Po.

البلد: باريس، فرنسا.

سنة النشر: 2019.

عدد الصفحات: 330 صفحة.

*** كاتب مغربي**



لأنها منحت العالم الرقمي إمكانية الوصول إلى معلومات أكثر دقة عن سلوك المستهلكين المحتملين في الحاضر والمستقبل.

في الفصل الأخير، يعود الكتاب إلى البيانات الكبيرة والخوارزميات الطموحة إلى تجاوز الذكاء البشري والتي سبق أن ناقشها الكاتب في أعماله السابقة. في خضم ماتهة العالم الرقمي، يعتبر تقييم البيانات رهانا رئيسيا على الإنترنت، يذكر كاردون أربعة معايير تحدد قيمة البيانات وهي: شعبيتها وسلطتها وسمعتها وقدرتها على التنبؤ بالسلوك. لكنه، علاوة على هذه المعايير، يؤكد الكاتب أن استغلالها يأتي من طرف الآلات. ومادام الأمر يتعلق بآلات وتقنيات، فيجب التشكيك في معنى ونتائج هذا الاستغلال للبيانات. على سبيل المثال لا الحصر: لتأسيس تنبؤات خوارزمية تمكن من جرد انتقالات المتصفح عبر الانترنت وتوقع نتائجها، فإنها حاليا يمكن أن يعطي معلومات صحيحة أو مغلوطة عن المتصفح أو الباحث عبر محركات البحث. بالإضافة إلى ذلك، فإن تحديات المراقبة الرقمية دفعت كاردون إلى إنهاء تحليله بالإشارة بذكاء إلى أن كتابه، الذي يفتح على الوعود بعالم أفضل كما تخيله رواد الإعلاميات يحذر أيضا من: السيطرة على الحياة الخاصة بفضل التقنيات الجديدة. وتمثل الخاتمة تلخيصا لروح الكتاب التي تسعى إلى تنوير القارئ بالإمكانات والمخاطر المرتبطة بالتأثير الرقمي على الحياة الاجتماعية للإنسان المعاصر.

وقبل الختم نذكر بأن كتاب كاردون يقدم عددا من المفاتيح المفيدة، لفهم الثقافة الرقمية دون الإغراق في التعقيدات التقنية والاصطلاحية، ومن الأشياء التي يفسرها بطريقة جيدة العوامل التي تسبب الإدمان على الثقافة الرقمية. تتميز كتابة كاردون بأسلوب سائح، يجعل

وفقاً لنموذج يأخذ بعين الاعتبار رؤية الجهات الفاعلة وطرائق خطابها: من جهة يميز كاردون الهوية الحقيقية عبر الإنترنت من الهوية الافتراضية، للتأكد من مدى مصداقيتها مع الواقع، ومن جهة أخرى، يأخذ بعين الاعتبار، من حيث الهوية المكتسبة أو النشطة، ميل مستخدمي الإنترنت إلى إظهار ما هم عليه فعلا أو ماذا يفعلون. نتيجة لذلك، هناك العديد من التصنيفات، مثل الهوية المدنية التي تشير، إلى إخضاع الأفراد الذين يعلنون عن خصائصهم الحقيقية على الشبكات الاجتماعية، في حين تنتج الهوية المذكورة من خلال عملية عرض المعلومات المنشورة على الإنترنت. وبالتالي، تحدد هذه الأنواع من الهوية عدة أشكال من تمظهر العناصر الفاعلة على المنصات التواصلية: لإظهارها أو إخفائها. في الواقع، إن الشبكات الاجتماعية لديها أنظمة علائقية محددة تشكل جزءاً لا يتجزأ من نشر الهويات التي تكون في بعض الأحيان رقمية حصرية. إنها تسمح للجميع باختيار ما يبثه وإضفاء الطابع الديمقراطي على الممارسات الإبداعية مثل الموسيقى أو الكتابة - حتى وإن كانوا يعيدون مطابقة معينة ويطرحون قضايا تنظيمية واضحة للغاية.

يصر المؤلف على أن هناك تأثيرا واضحا لهذا الفضاء الرقمي الجديد على الممارسات الديمقراطية، لأنه يعمل على تنمية أساليب جديدة للتعبير والاحتجاج، لأن العالم الرقمي يعطي الانطباع بأنه لا مركزي وتشاركي، ولكنه لا يؤدي إلى شكل سياسي مستقر وعملي. وحتى وإن ظهر حراك ديمقراطي عبر الإنترنت دون المرور عبر السياسة أو وسائل الإعلام، فإنه لم يسفر إلى حدود اليوم عن بديل للديمقراطية التمثيلية. وفي السياق ذاته يتعرض الصحفيون والقنوات الإخبارية للخطر بسبب هذه الأشكال الجديدة من النقاش والتعبير، ومنها تخفيض جمهورها أو إيراداتها في بعض الأحيان، في المقابل فإن وسائل الإعلام التقليدية تحتفظ بسلطتها، وفي المقام الأول قدرتها على إثبات حقيقة واقعية.

يناقش المؤلف في الفصلين الأخيرين آخر المستجدات الرقمية. ويبدأ أولاً بالدور الاقتصادي لكبار مشغلي تقنية المعلومات مثل محركات البحث، والتجارة الإلكترونية، والشبكات الاجتماعية، ومصنعي الإلكترونيات، إلخ. لقد تمكنت هذه الشركات الفتية من تحويل العناصر الأساسية للثقافة الرقمية إلى رؤوس أموال ضخمة ومؤثرة. ويشير كاردون في هذا الصدد إلى المعارضة التقليدية بين تقاسم الاقتصاد واقتصاد المنصات. تعتمد المنصات الرقمية بشكل متناقض على الحلول التقنية الموثوقة بين مقدمي العرض والطلب، لكنها أسست نجاحها على توظيف الإعلانات عبر الإنترنت التي أحدثت ثورة في التسويق،